

التراث الإنساني في الحضارة العربية الإسلامية

الدكتور بديع العابد
معماري استشاري (عمان - الأردن)

مقدمة :

الإنجازات الثقافية الإنسانية (التراث الإنساني) ، قديم قدم الإنسان نفسه ، وهي تؤرخ لتطور الفكر الإنساني ، وتبين مدى تقدم الحضارات و رقيها . ولقد عنيت منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) منذ نشأتها بالشأن الثقافي ، وصنفت الإنجازات الثقافية إلى آثار وتراث . فالآثار هي الإنجازات المادية (التراث المادي) ، أي المباني التي يزيد عمرها عن ١٥٠ - ٢٥٠ عاماً ، طبقاً لتصنيف كل دولة من الدول الأعضاء في اليونسكو . ثم صنفت التراث إلى ثلاثة أقسام : تراث مادي ، وتراث لا مادي ، وتراث إنساني ، ويجمع الأخير بين التراث المادي واللامادي . ثم صنفت التراث زمنياً بالتراث القديم والتراث الحديث ؟! وحضت على الحفاظ عليها جميعاً . فالآثار يتوجب الحفاظ عليها بتحنيطها وعدم استعمالها . والتراث يتوجب الحفاظ عليه بترميمه واستعماله أو إعادة تأهيله ، وسنت المواثيق الخاصة بذلك .

لكن اليونسكو أغفلت خصوصية الحضارة العربية الإسلامية لسببين : أولهما ، أن هذا التصنيف لا ينطبق على إنجازات الحضارة العربية الإسلامية المادية ، فليس ثمة آثار وتراث في إنجازاتها . لأنها حضارة حية قائمة ، منتشرة في المكان ومستمرة في الزمان ، لا يجري عليها التقادم الزمني . فجميع إنجازاتها ، والمادية (المعمارية) منها

بصفة خاصة، تستعمل بشكل دائم، والمباني الدينية، كالمساجد، أظهر مثال على استدامة الاستعمال. فلو سلمنا، جداراً، بتصنيف اليونسكو لتوجب تخنيط المسجد الحرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى، والمسجد الأموي في دمشق، والأزهر في القاهرة وغيرها الكثير.

والأهم من ذلك أن بنية الحضارة الإسلامية وتكوينها يقتضى حضورها الدائم. ففلسفة تاريخها قائمة على: التواصل التاريخي، والدروس والعبر، والتفكير والتأمل، والتنوع داخل الوحدة. فالأول، التواصل التاريخي، يتطلب الحضور الدائم لإنجازاتها، أى الاستعمال الدائم لإنجازاتها المادية (المعمارية). وأما الثاني والثالث، فينبهان إلى: آلت إليه الحضارات السابقة للحضارة الإسلامية من انهيار وفناء، للاعتبار بها والاتعاظ بما حصل لها، وهما مكملان للأول. وأما الرابع، التنوع داخل الوحدة، فالمقصود به الحفاظ على إسهامات وإنجازات الشعوب الإسلامية المادية، التي مورست تحت مظلة الإسلام المتنوعة بيئياً وتقنياً، والموحدة فكرياً.

أضف إلى ذلك أن مؤسسة الوقف، الأقوى فاعلية في بنية الحضارة الإسلامية، تنص صراحة وبوضوح تام، وبمصطلحات وعبارات لا تقبل التأويل أو اللبس، على الحفاظ على مفردات النسيج المعماري، أى المادى، واستمرار أدائها لوظيفتها، وبصفة خاصة فى أحكام الشارع (الشرعية) وشروط الواقف، اللذان لهما نفس قوة التطبيق، طبقاً للقاعدة الشرعية: "إن شرط الواقف كنص الشارع"، ومن هذه الأحكام والشروط: "وقف وحبس وتصدق وحرم وسبل وأبد... إلى أن يرث الله الأرض وما عليها... بما فيه بقاء عينها ودوام منفعتها... لا ينسخ حكمه ولا يندرس رسمه... لا يندرس رسمها... ولا يغير رسمها... قائمة على أصولها... لا يجوز تغيير صفة الوقف... الأولوية فى صرف ريع الوقف للحفاظ على الأعيان الموقوفة...".

مما سبق يتضح أن بنية الحضارة الإسلامية المثلثة بوحدة فكرها وبفلسفة تاريخها، وبمؤسسة الوقف تفرض، بل تحتم، تواصلًا تاريخياً يقضى بالاستعمال الأبدى والدائم لإنجازاتها المادية واللامادية. فهي إذن ليست آثاراً، مهما تقادم عهدها، لينطبق عليها تصنيف اليونسكو، وليست تراثاً لأنها تنتمي إلى حضارة حية كما أسلفت.

وهذا يقودنا إلى السبب الثاني، وهو أن اليونسكو لم توظف إسهام الحضارة العربية الإسلامية في الحفاظ على إنجازاتها الثقافية وإنجازات غيرها من الحضارات، ولم تستثمر دورها الريادي في هذا المجال، وهو الأقدم زمنياً والأعمق معرفياً من كل موانيق الحفاظ الدولية، كما بينت في كتابي الموسوم بـ: الحفاظ المعماري في الحضارة العربية الإسلامية^(١)، وكما سأبين لاحقاً في هذه الدراسة.

وربما يعود إغفال اليونسكو لخصوصية الحضارة الإسلامية إلى عدم معرفة القائمين عليها بهذه الخصوصية، وبدورها الريادي في مجال الحفاظ، أو إلى تقصير، وربما جهل، الممثلون العرب والمسلمين في اليونسكو بهذه الخصوصية والدور الريادي. وذلك لأن فكرنا مغيب، ووعينا مستلب، وإرادتنا مرتهنة للغرب ونزواته، ولأننا استمررنا استيراد المعرفة واجترارها وعدم إنتاجها، ولأن مؤسساتنا الثقافية المعنية عاجزة، والأغلب أنها عازفة، عن فرض حضور إسهام الحضارة العربية الإسلامية في المنظمات والمؤسسات الدولية.

استناداً إلى ما سبق فإنه يتوجب، على جميع الدول العربية والإسلامية، التنويه صراحة على ديمومة حضور واستعمال الإنجازات المادية للحضارة الإسلامية، وإعادة النظر في تصنيفنا لإنجازاتنا المادية (المعمارية) إلى آثار وتراث. كما يتوجب التحفظ

١ - انظر: العابد، بديع، (دكتور)، (١٤٣١هـ - ٢٠١٠م)، الحفاظ المعماري في الحضارة العربية الإسلامية، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو)، المغرب.

على ميثاق اليونسكو، وتسجيل هذا التحفظ في منظمة اليونسكو، حتى لا نطالب بتحطيط إنجازاتنا المعمارية التي أشرت إليها سابقاً، كالتالي:

لما كانت الحضارة العربية الإسلامية حضارة قائمة، منتشرة في المكان ومستمرة في الزمان، فإن جميع إنجازاتها المادية (المعمارية) هي مبانٍ صالحة للاستعمال أو إعادة التأهيل، وأن ما جاء في ميثاق اليونسكو والمواثيق الدولية والهيئات الغربية من تصنيف زمني للإنجازات المادية: كآثار وتراث، تصنيف لا يعنى الحضارة العربية الإسلامية، ولا يرتب عليها أى التزام أدبي أو معنوي أو قانوني.

الأهداف والمنهجية:

تهدف هذه الدراسة إلى تعريف التراث الإنساني، وتوضيح بنيته في الحضارة العربية الإسلامية. كما تهدف إلى بيان دورها الريادي في حفظ إنجازاتها المادية واللامادية، وحفظ تراث غيرها من الحضارات التي سبقتها.

ولتحقيق ذلك ستعرض الدراسة لتعريف التراث الإنساني، ولمصادر الجمع والتدوين والتوثيق، والتنويه بالمنهجية العلمية والعقلانية، التي وظفت للحفظ على إنجازات الحضارة العربية الإسلامية، وتراث الحضارات السابقة والمعاصرة لها. كما وردت في جمع القرآن الكريم والحديث الشريف، وتدوين الشعر الجاهلي. وترجمة كتب العلوم اليونانية والسريانية والهندية. وستبين دور الإنجازات الإسلامية والتراث اليوناني والسرياني والهندي في التنمية الثقافية والعلمية.

فالدراسة إذن للتراث تضمن مستويين: مستوى خاص بالإنجازات الإسلامية، ومستوى خاص بالتراث الغير إسلامي، وسأبدأ الدراسة بتعريف التراث الإنساني، ثم أعرض للإنجازات الإسلامية، ثم للتراث غير الإسلامي.

التراث الإنسانى :

كما بينت فى المقدمة فإن الحضارة الإسلامية كحضارة : قائمة ، منتشرة فى المكان ومستمرة فى الزمان ، لا تملك تراثاً بل إنجازات . فإنجازها الإنسانى هو مجمل إنتاجها الثقافى المادى واللامادى . وهو جزء لا يتجزأ من إنتاج البشرية ، أو ما اصطلح على تسميته بالتراث الإنسانى . وهو : إنتاج البشرية من التراث الثقافى المادى واللامادى ويشمل : المعالم المعمارية ، المنحوتات والرسومات والتصوير ، الكتابات والخطوط والنقوش ، الكهوف والمغر ، المواقع الطبيعية أو التى صنعها الإنسان أو من الاثنين معاً ، المواقع الآثرية ، العناصر الإنشائية كالجسور والأنفاق ، الصناعات الحرفية والمنتجات اليدوية ، الآداب والفنون ، والقصص الشعبى ، والغناء والزجل ، والنوادر ، والأساطير ، وبالجملة يعتبر تراثاً إنسانياً ، كل ما له قيمة فنية ، أو تقانية ، أو تاريخية .

هنا يقتضى التنويه أن الفرق بين الإنجازات والتراث فى رأى ، هو أن الأول ، الإنجازات ، هى المنتجات الثقافية الفاعلة أو القابلة للتفعيل والتوظيف ، أو المحفوظة والموثقة ضمن الحضارة التى أنتجتها حتى لو لم تعد فاعلة أو قابلة للتفعيل فى الحياة اليومية . فحفظها وتوثيقها يعطيانها صفة الإنجازات حتى لو تعرض بعضها للتلف والخراب . وهذا هو حال الحضارة الإسلامية فجميع إنتاجها الثقافى يعتبر إنجازات ، ليس فقط لأن إنتاجها الثقافى مرتبط بفلسفة تاريخها وبنيتها بل لأنها محفوظة وموثقة أيضاً . ولا يضاهاى الحضارة الإسلامية فى هذا الأمر سوى الحضارة الحديثة والمعاصرة ؛ لأن إنتاجها الثقافى سواء كان فاعلاً أو غير فاعل يعتبر إنجازاً . فالإنتاج الفاعل سواء كان مادياً أو لامادى موظف ويتمتع بسلطة الحضور فهو إنجازات ، أما غير الفاعل فهو موثق ومحفوظ متحفاً بسبب التطور الثقافى ، أو التقانى أو الفنى ، أو الوظيفى ، الذى طرأ عليه . فالتطور الذى نعيشه فى حياتنا اليومية يلغى أجيالاً من الإنجازات ليحل

محلها إنجازات جديدة كما يحصل، على سبيل المثال، في السيارات، الأدوات المنزلية، وأجهزة التقانة الرقمية.

وهنا يتوجب الملاحظة أن المقتنيات المتحفية نوعين: الأول، قديم، من إنتاج الحضارات المنقرضة، وغير قابل للتوظيف أو الاستعمال، أو يمكن توظيفه واستعماله لكن قيمته الفنية أو التقانية أو التاريخية أعلى من قيمته العملية، مما يستوجب الحفاظ عليه متحفاً. والثاني، منتج (إنجاز) حديث أو معاصر تم تطويره فاقضى الحفاظ على صورته، أو صورته، الأولى متحفاً.

أما الثاني، التراث، فهو المنتج الثقافي الذي أهمل توثيقه في الحضارة المنتجة له، أو تم تلفة بسبب انهيارها واندثارها، وتم الاستدلال والتعرف عليه لاحقاً من قبل حضارة أخرى، سواءً عنيت بترميمه وتوثيقه وتوظيفه أم لا. فالتراث هو نتاج الحضارات الميتة، أو التي لم تعد فاعلة. والتراث هو ما يتعذر توظيفه واستعماله، أو ما أصبح صورة قديمة لمنتج جديد، فاكسب قيمة فنية أو تقانية أو تاريخية أعلى وأثمن من قيمته العملية فتوجب الحفاظ عليه توثيقاً واقتناءً إن أمكن.

وعليه فإن ما يمكن إطلاق لفظ تراث عليه، هو ما تعذر توظيفه واستعماله في الحياة المعاصرة، أو المنتج الذي تم تطويره فَعَلَتْ وفاقَتْ قيمته الفنية أو التقانية أو التاريخية قيمته العملية. وضمن هذا التعريف يمكن تسمية بعض منتجات الحضارة الإسلامية من الحرف والمصنوعات اليدوية، التي لم تعد فاعلة، تراثاً. لكن لا يمكن تسمية باقي إنتاجها الثقافي، الأدبي والفكري والفلسفي والمادى، تراثاً بل إنجازات، لأنها فاعلة.

ضمن هذا السياق سأعرض لدور الحضارة الإسلامية في حفظ وحماية إنجازاتها الثقافية وتراث الحضارات التي سبقتها وعاصرتها وإيصاله إلينا، والذي تم على

مستويين، هما: المستوى الإسلامي والمستوى غير الإسلامي، فيما يلي من عرض وتحليل.

دور الحضارة الإسلامية في حفظ إنجازاتها وتراث غيرها :

التراث الإنساني هو مجمل نتاج ثقافات العالم، والحفاظ عليه هو أرقى مستويات الحفاظ قاطبة، وهو سمة من سمات الحضارات الراقية. وكان للحضارة الإسلامية السبق في هذا المجال، مع أنها ابتليت أكثر من مرة بتدمير إنجازاتها الثقافية. كان أولها سقوط بغداد على يد التتار (المغول) سنة (٦٥٦هـ - ١٢٥٨م)، الذين دمروا الإنجازات الثقافية العربية الإسلامية في بغداد، وأفرغوا مكتباتها من الكتب وألقوها في نهر دجلة. وكان آخرها سقوط بغداد أيضاً سنة (٢٠٠٣م) على يد الأمريكان (التتار الجدد)، الذين استباحوا مكتباتها، ومتاحفها، ومواقعها الأثرية، ونهبوا ما طالت أيديهم من كنوز العراق الثقافية والفنية منها بصفة خاصة. وكان بين هذين السقوطين السلب والنهب والدمار الذي أحدثه الصليبيون في بلاد الشام ومصر في الفترة من سنة (٤٨٨ - ٦٩٠هـ / ١٠٩٥ - ١٢٩١م)، والتتار بعدهم. وكذلك الدمار الذي أحدثه الإسبان في غرناطة عقب سقوط الدولة العربية الإسلامية في الأندلس سنة (٨٩٨هـ - ١٤٩٢م). ولا ننسى النهب والسلب وتدمير النسيج المعماري لمدينة القاهرة الذي قام به نابليون والجيش الفرنسي عندما احتل مصر سنة (١٢١٣ - ١٢١٦هـ / ١٧٩٨ - ١٨٠١م)، وكذلك محاولاتهم، أي الفرنسيين، القضاء على الثقافة العربية الإسلامية في الجزائر. وأهم من هذا كله سلب اليهود لفلسطين أرضاً وثقافةً، ومحاولاتهم هدم أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، منذ سنة (١٣٦٨هـ - ١٩٤٨م / الآن)، وطمس كل إنجازاتنا المادية واللامادية بها. ثم نهب الأوروبيون: لإنجازاتنا العلمية، والثقافية، والمعمارية، وسرقتهم مخطوطاتنا، وتحفنا، وآثارنا العربية والسامية، التي ورثناها عن أجدادنا واحتفاظهم بها في مكتباتهم

ومتاحفهم. وأخيراً استلابهم لوعينا، وتغييبهم لإنتاجنا العلمي والفكري والثقافي، ومحاولتهم طمس شخصيتنا الحضارية.

والثقافة، كما هو معروف عصب التراث الإنساني، وهي: "مجمل السمات المادية والفكرية والعاطفية التي تميز مجتمعاً عن غيره وتشمل: الفنون، والآداب، وطرائق الحياة، والحقوق الأساسية للإنسان، ونظم القيم، والتقاليد، والمعتقدات"^(١). وهذه السمات تمارس بمستويات مختلفة من الوعي، والحفاظ عليها يكون نتاج الوعي بها، وكلما علت واتسعت دائرة الوعي كلما علا واتسع مفهوم الحفاظ عليها، أي مفهوم الحفاظ الثقافي. والحضارة الإسلامية كانت وما زالت من أكثر الحضارات وعياً بالمنتج الثقافي، سواء كان إسلامياً أو غير إسلامي. فعنيت بالمحافظة على منتجها الثقافي، وعلى منتج غيرها. فكان لها الريادة في إرساء مفهوم الحفاظ، كما يتضح في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٩) ﴿٢﴾. وكذلك في قوله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ (٩) ﴿٣﴾. فالآية الأولى خاصة بالحفاظ على المنتج الثقافي الإسلامي، والآية الثانية خاصة بالحفاظ على المنتج الثقافي غير الإسلامي. فبنية الحفاظ الثقافي في الحضارة الإسلامية تقوم على مستويين: مستوى خاص بها، ومستوى خاص بالحضارات الأخرى، وسأعرض لهما تباعاً فيما يلي من دراسة وتحليل.

المستوى الإسلامي:

نشطت الحضارة الإسلامية في تطبيق مفهوم الحفاظ على منتجاتها الثقافية

١ - انظر: العابد، بديع، ثقافة العمارة، مجلة اتحاد الجامعات العربية للبحوث والدراسات الهندسية،

مجلد ٧، عدد ١، ص: ٣.

٢ - انظر: القرآن الكريم، سورة الحجر.

٣ - انظر: القرآن الكريم، سورة الروم.

اللامادية والمادية، فطبّقته قولاً وعملاً. ففي الجزء اللامادي، تم جمع القرآن الكريم^(١) والحديث الشريف^(٢)، وتدوين الشعر الجاهلي^(٣) وتوثيق كل ما أنتجته من: أدب، وفن، وموسيقى، وزجل، وغناء^(٤)، وعلوم، وفكر، وفلسفة^(٥)، وعمارة. واللافت للنظر أن الحضارة الإسلامية من أغنى الحضارات^(٦) إنتاجاً للأدب المعماري، الذي شمل جميع مجالات العمارة. وأما عملاً فقد طبقه الخليفة أبو بكر الصديق (١١-١٣هـ / ٦٣٢-٦٣٤م) في وصيته لأسامة بن زيد بن حارثة، بعد أن أمره على قيادة جيش المسلمين، في غزو بلاد قضاة سنة (١١هـ - ٦٣٢م) التي أرست أسس القانون

١ - انظر: الزركشي، بدر الدين، المتوفى (٧٩٤هـ-١٣٩١م)، البرهان في علوم القرآن، ٤ أجزاء، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الفكر، ط ١، (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م)، بيروت، لبنان، ج ١ / ٢٩٥ - ٥٣١.

- السيوطي، جلال الدين، المتوفى (٩١١هـ-١٥٠٥م)، الإتيان في علوم القرآن، جزآن، تحقيق محمد شريف سكر، ومصطفى القصاص، دار إحياء العلوم، (١٤١٢هـ-١٩٩٢م)، بيروت، ج ١ / ١٦٣ - ٢٣٢.

- زيدان، جرجي، ١٩٥٧م، تاريخ آداب اللغة العربية، ٥ أجزاء، دار الهلال، القاهرة، ج ١ / ٢٢٤ - ٢٢٩.

٢ - انظر: الرافعي، مصطفى، (١٣٩٤هـ-١٩٧٤م)، تاريخ آداب العرب، ٣ أجزاء، الطبعة الرابعة، ج ١ / ٢٧٧ - ٣٥٠.

- زيدان، جرجي، مرجع سابق، ج ١ / ٢٤٦ - ٢٤٧.

- صحيح البخاري وصحيح مسلم.

٣ - انظر: ضيف، شوقي، (دكتور)، (١٩٦٠م)، تاريخ الأدب العربي، ٥ أجزاء، دار المعارف، القاهرة، ج ١ / ١٣٨ - ١٨٢.

- الرافعي، مصطفى، مرجع سابق، ج ١ / ٣٥١ - ٤١٥.

- زيدان، جرجي، مرجع سابق، ج ٢ / ١١٩ - ١٢٩.

٤ - انظر: الأصبهاني، أبو الفرج، (٢٨٤ - ٣٥٦هـ / ٨٩٧ - ٩٦٧م)، الأغاني، ٢١ جزءاً، ٧ مجلدات، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بدون تاريخ نشر، بيروت.

٥ - انظر: ابن النديم، (٣٧٧هـ-٩٨٧م)، الفهرست، دار المعرفة، بدون تاريخ نشر، بيروت.

٦ - See: Al - Abed, B. (1992) Aspects Of Arabic Islamic Architectural Discourse - ٦, University of Delft, Netherland, pp.:15 - 18

الدولى فى الحفاظ على حياة البشر وممتلكاتهم وانجازاتهم الثقافية وحرية ممارستهم لشعائهم الدينية، واقتبس منها ما يلى ^(١):

"... ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تعقروا (تقطعوا) نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له..." .

فالحفاظ على البشر من أولويات الحضارة الإسلامية ومقدم على الحفاظ على الممتلكات؛ لأن الحفاظ على الإنسان شرط للحفاظ على البنين وعلى التنمية. وهو عمل مأسس بمسلكيات أخلاقية ومؤطر بأحكام شرعية.

وهذا ما أكدته الخليفة عمر بن الخطاب (١٣ - ٢٣ / ٦٣٤ - ٦٤٤ م) فى العهدة العمرية، وهى العهد الذى قطعه لبطريق القدس صفرونيوس، عندما اشترط الأخير تسليم المدينة للخليفة عمر، أمام ضغط الجيش العربى الإسلامى الذى أرسله الخليفة عمر لتحريرها من البيزنطيين سنة (١٥ هـ - ٦٣٦ م)، والتى نصت على حماية التراث المادى واللامادى للنصارى فى مدينة القدس ^(٢):

"بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أهل إيلياء (القدس) من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمتها وبريشتها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شئ من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء (القدس) معهم أحد من اليهود (هذا الشرط وضع بناءً على طلب البطريرك صفرونيوس...) وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة

١ - انظر: الطبرى، محمد بن جرير (٣١٠ هـ - ٩٢٢ م)، تاريخ الطبرى، ١١ جزء، تحقيق محمد أبو

الفضل إبراهيم، الطبعة الرابعة، دار المعارف، ١٩٧٩ م، القاهرة، ج ٣ / ٢٢٦ - ٢٢٧ .

٢ - انظر: المرجع السابق، ج ٣ / ٦٠٨ - ٦٠٩ .

رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية. شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان. وكتب وحضر سنة خمسة عشرة (هجريّة، ١٥ هـ - ٦٣٦ م)."

واللافت أن جميع العهود^(١) التي أبرمها قادة جيوش المسلمين الذين حرروا بلاد الشام وفلسطين والعراق من الصليبيين ومن الفرس، كانت على نفس النمط، أي تنص على حفظ التراث المادي واللامادي للسكان العرب الأصليين والبيزنطيين والفرس المحتلين.

والفاحص لتقانات حفاظ المستوى الإسلامي يجد أنه تم طبقاً لمنهجيات في: الجمع، والنقل. ولتقانات في: التحقيق، والتوثيق، والتدوين، شكلت جميعها بنى الحفاظ الثقافي. فجمع القرآن له بنيته الخاصة به، وجمع الحديث له بنيته الخاصة به، وكذلك جمع الشعر الجاهلي وتدوينه، لا يتسع المقام لعرضها في هذه الدراسة، فاكتمى بالتنويه بها والإحالة المرجعية عليها.

والجدير بالملاحظة أن جمع وحفظ الظواهر الثقافية العربية الإسلامية وتدوينها قد تم إما بقرار سياسي أو استجابة لضرورة تشريعية أو اجتماعية أو ثقافية أو لفضول معرفي، ولغاية سامية وغرض نبيل، هو حفظ هذه الظواهر من الضياع أو النسيان، وإبقائها في حيز التداول والاستعمال. فجمع القرآن الكريم تم بأمر من الخليفة أبو بكر، ثم الخليفة عمر بن الخطاب الذي حرض أبو بكر على جمعه خوفاً من الضياع^(٢) لتفريق حفظته بالأمصار، ثم الخليفة عثمان بن عفان الذي جمعه لنفس السبب. وأما جمع الحديث فكان فضولاً علمياً واستجابة لضرورة تشريعية قام به أئمة مثل مالك بن

١ - انظر: المرجع السابق، ج ٣ / ٦٠٩.

٢ - انظر: المراجع في الهامش رقم ٥.

أنس والبخارى ومسلم. وأما جمع الشعر الجاهلى فكان مطلباً علمياً^(١) للاستعانة به لتفسير القرآن الكريم، ومطلباً ثقافياً وفضولاً معرفياً للوقوف على أخبار العرب فى الجاهلية.

أما الأغاني فكان جمعها مطلباً ثقافياً وترفيهياً، فقد أمر الخليفة العباسى^(٢) هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣ هـ / ٧٨٦ - ٨٠٩ م) أشهر ثلاثة مغنين فى عصره وهم: إبراهيم الموصلى، واسماعيل بن جامع، وفليح بن العوراء، باختيار أفضل مئة صوت (أغنية) من الأغاني المتداولة. وقد قاموا بجمعها وتدوينها. ثم جاء ابو الفرج الأصبهاني الأموى (٢٨٤-٣٥٦ هـ / ٨٩٧ - ٩٦٧ م)، حفيد آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد، بتأليف كتابه الأغاني فى ٢١ جزءاً، ذكر فى مقدمته الأهداف والدوافع لتأليفه الكتاب وبين منهجه كالآتى^(٣):

"هذا كتاب ألفه على بن الحسين بن محمد القرشى الكاتب المعروف بالأصبهاني جمع فيه ما حضره وأمكنه جمعه من الأغاني العربية قديمها وحديثها ونسب كل ما ذكره منها إلى قائل شعره وصانع لحنه وطريقته واشتراك إن كان بين المغنين فيه على شرح لذلك وتلخيص وتفسير للمشكل من غريبه ومالا غنى عن علمه من علل إعرابه وأعاريض شعره التى توصل إلى معرفة تجزئته وقسمة ألحانه ولم يستوعب كل ما غنى به فى هذا الكتاب ولا أتى بجميعه، إذ كان قد أفرد لذلك كتاباً مجرداً من الأخبار ومحتوياً على جميع الغناء المتقدم والمتأخر واعتمد فى هذا الباب على ما وجد لشاعره أو مغنيه أو السبب الذى من أجله قيل الشعر أو صنع اللحن خبراً يستفاد ويحسن بذكره الصوت على أقصر ما أمكنه وأبعده من الحشو والتكثير بما تقل

١ - انظر: المرجع فى الهامش رقم ٧ .

٢ - انظر: الأغاني، مرجع سابق، ج ١ / ٢ .

٣ - انظر: المرجع السابق، ج ١ / ٢ - ٤ .

الفائدة فيه وأتى في كل فصل من ذلك بنتف تشاكله ولمع تليق به وفقر إذا تأملها قارئها لم يزل متنقل بها من فائدة إلى مثلها ومتصرفا بها من جد إلى هزل وآثار وأخبار وسير وأشعار متصلة بأيام العرب المشهورة وأخبارها الماثورة وقصص الملوك في الجاهلية والخلفاء في الإسلام تجمل بالمتأدبين معرفتها وتحتاج الأحداث إلى دراستها ولا يرتفع من فوقهم من الكهول عن الاقتباس بها إذا كانت منتحلة من غرر الأخبار ومنتقاة من عيونها ومأخوذة من مظانها ومنقولة عن أهل الخبرة....".

ويستطرد الأصبهاني في مقدمته بتوضيح منهجيته في الجمع، وبيان التقانات التي استعملها في التحقيق والتوثيق والتدوين (التسجيل) والتصنيف، عارضاً للهدف السامي والنبيل من عملية جمع الأغاني في كتابه، وهي الحفاظ على ظاهرة ثقافية تشمل الأغاني والمغنين والشعراء والألحان والملحنين. واللافت هنا أن الحفاظ على الإنجازات الفنية العربية الإسلامية كان قراراً سياسياً من الخليفة هارون الرشيد، وفضولاً معرفياً عند الأصبهاني.

واللافت أن الفضول المعرفي للأصبهاني جعله متخصصاً في حفظ منجزات الحضارة الإسلامية وغير الإسلامية، المادية واللامادية. إذ أن القسم الأكبر من مؤلفاته كرسه لتوثيق هذه الإنجازات وأذكر منها: الديارات، الممالك والشعراء، أدب الغرباء، الأخبار والنوادر، أخبار الطفيليين، الخمارين والخمارات، أخبار (المغنى) جحظة.

والفضول المعرفي لعب دوراً كبيراً في حفظ الإنجازات المادية واللامادية والثقافية للحضارة الإسلامية. فالجاحظ، (١٥٠-٢٥٥ هـ / ٧٦٧ - ٨٦٨ م) في كتابيه: البخلاء والبيان والتبيين، حفظ الكثير الكثير، من الطرائف والنوادر والوقائع والقصص التي تصور الحياة الاجتماعية. وابن الزبير، (القرن ٥ هـ / ١١ م)، في كتابه الذخائر والتحف (المقتنيات الفنية)، وثق وسجل ووصف فيه الذخائر والتحف التي وجدت في قصور الخلفاء والملوك والولاة والناس، كما سجل الرسائل المتبادلة بين ملوك

العرب وملوك أوروبا والهند والصين. وكذلك الأبشيهي، (٧٩٠-٨٥٠هـ / ١٣٣٨ - ١٤٤٦م)، في كتابه المستظرف في كل فن مستظرف، سجل الغرائب واللطائف والنوادر والقصص والأساطير، التي تصور الموروث الشعبي في الحضارة العربية الإسلامية. وكذلك مقامات بديع الزمان الهمداني ومقامات الحريري.

ومن الكتب التي تصور الموروث الشعبي التي عنيت الحضارة الإسلامية بجمعها وحفظها كتب السير مثل: سيرة عنتربن شداد، وسيف بن ذي يزن، والأميرة ذات الهمة، والظاهر بيبرس، وجحا، وعلى بابا والأربعين حرامي، والسندباد البحري، والشاطر حسن، والشعر النبطي، وشعر الزجل، وألف ليلة وليلة التي ألهمت وألهمت الخيال الغربي الأوروبي ووطنت سحر الشرق في مدينة بغداد. والصورة المرفقة لصفحتين من مخطوطة الكتاب توضح حجمه وتبين تقانة الحيك القصصي، وأسلوب سرد الأحداث وعناصر الإثارة والتشويق في سردها، كما تبين تقانة الكتابة والحفظ.



صورة لصفحتين مخطوط كتاب ألف ليلة وليلة (نقلت من الشبكة)

هذه الكتب من التراث الشعبي، وغيرها الكثير لا تتسع الدراسة لحصرها تمثل سجلات للإنجازات والتراث الإنساني، المادى واللامادى، الذى أنتجته وعينت الحضارة العربية الإسلامية بحفظه وجمعه وتدوينه. كما تتم روايته فى أماكن اللهو العامة كالمقاهى، حيث يقوم شخص يعرف بالحكايات برواية، هذه القصص من السير الذاتية لعنتر بن شداد وغيره، وكان هذا النوع من اللهو فى التراث الشعبى شائعاً فى مقاهى معظم المدن العربية حتى ستينيات القرن الماضى، ولا يزال يقدم عروضه بمدينة دمشق حتى يومنا الحاضر فى مقهى النوفرة، شرقى الجامع الأموى. كما أن نوعاً آخر من اللهو كان يقدم فى المقاهى يعرف بأرجوز وغيواز (كراكوز وغيواض).

واللافت أن الشعر النبطى ما زال فاعلاً فى دول الخليج العربى والأردن وسوريا، وبعض الدول العربية خصصت له برنامجاً إذاعياً وأقامت ديوانيات خاصة لشعرائه، كما يتم تسجيله على أشرطة التسجيل وتداوله بين الناس بيعاً وشراءً. أما شعر الزجل فاشتهر فى مصر وبلاد الشام، وبصفة خاصة فى لبنان وفلسطين، وفى لبنان خصص له برنامج تلفزيونى، أما فى فلسطين فما زال يستعمل فى أفراح الريف ويطلق على شعرائه لقب القويلة، ويجتمع فى الفرح شاعرين (قويلين) أو أكثر، ويتم السجال بينهما، على أنغام الشبابة أو الأرغول، مباشرة إما بالمقابلة أو المعارضة. وقد جمع ما قيل فى هذا الفن، كما يتم تدوين ما يستجد منه لأنه ما زال فاعلاً ومستخدماً.

وأكتفى بهذا القدر للتدليل على أسباب الحفاظ للمنجزات اللامادية فى المستوى الإسلامى، وهو غيض من فيض، إذ إن الحضارة الإسلامية هى الحضارة الأولى التى وثقت ودونت وسجلت إنجازاتها. فهى بكل المعايير مصدر لمفاهيم الحفاظ على التراث الإنسانى؛ لأنها ضمت وشملت ثقافة شعوب مختلفة، منتشرة فى مناطق جغرافية شاسعة، تمتد فى آسيا وأفريقيا وأوروبا ووصل تأثيرها إلى أمريكا الشمالية وحالياً امتدت ثقافتها إلى كل مكان فى العالم.

وبالجملة فإن الحفاظ على الإنجازات العربية الإسلامية المادية واللامادية أخذ شكلاً مؤسسياً، بمعنى أنه كان عملاً مشتركاً بين الدولة والمواطنين. وهذا الأمر يتجلى بصورة أكثر وضوحاً في الحفاظ على الإنجازات المادية (المعمارية) للمستوى الإسلامي، الذي يعتبر بحق المصدر الأول للحفاظ المادى للإنسانية كما سأوضح فيما يلى من عرض وتحليل.

أما الإنجازات المادية (المعمارية) فقد عرضت لها فى دراسة موسعة، نشرتها المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم (الإيسيسكو)، فى كتاب بعنوان، الحفاظ المعماري فى الحضارة العربية الإسلامية^(١)، وقد أشرت إلى هذا الكتاب فى المقدمة. وبينت فيه أن الحضارة الإسلامية هى أول حضارة فى العالم تنص وتبني صراحة وبوضوح تام مفاهيم الحفاظ المادى (المعماري). وبينت أن الحفاظ مفهوم أبدي سرمدى ولد فى رحم الشريعة الإسلامية وارتبط بفلسفة تاريخها. كما بينت أن مصدر هذا المفهوم هو مؤسسة الوقف الإسلامى، وأن مشاريع الوقف هى مشاريع حفاظ مادى معمارى. وأن إدارة مشاريع الوقف هى نفسها إدارة مشاريع الحفاظ، وأن واجبها الأول هو الحفاظ على الأعيان (المباني) الموقوفة، كما بينت أن الجهاز الإدارى لإدارة مشروع الحفاظ يشمل تعيين جهاز فنى للصيانة، ويتضمن معمار وبناء ونجار وقنواى. كما بينت أن ميزانية مشروع الوقف هى ميزانية مشروع الحفاظ، وأن أولوية صرف ريع الوقف تخصص للحفاظ المادى على الأعيان الموقوفة. كما عرضت لتقانات الحفاظ النظرية والعملية وبينت حجم التدخل لكل تقانة عملية من التقانات السبع وهى: العمارة، والترميم، والتجديد، والإضافة، والرفع، والقلع والنصب، والهدم وإعادة البناء. ثم عرضت لأنواع السجل المعماري ولطرق وتقانات التوثيق. وختمت الكتاب

١ - انظر: المرجع فى الهامش رقم ١.

ببيان دور الوقف والحفاظ في التنمية، وبينت أنه لا تعارض بين التنمية والوقف والحفاظ، وأن الأخيرين هما أكبر مصدر للتنمية التعليمية والتربوية، والاجتماعية، والصحية، والصناعية والسياحية، والاقتصادية.

مما سبق يتضح أن اهتمام الحضارة الإسلامية بإنجازاتها الإنسانية ("التراثية") اللامادية والمادية والحفاظ عليها، هي الأقدم زمنياً والأعمق معرفياً، من أية حضارة أخرى. وأن مفهومها للحفاظ مفهوماً مؤسسياً عقلانياً وليس عاطفياً كما بدأ في الغرب في ثلاثينيات القرن الماضي ولم يأخذ الصفة المؤسسية إلا في ستينيات القرن الماضي أيضاً. كما أنه مصدر أساس للتنمية ينميها ويحفزها ولا يتعارض معها. وسنرى جانباً آخر لمفهوم إسهام الحضارة الإسلامية للتراث الإنساني في المستوى غير الإسلامي الذي سيكون موضوعنا التالي.

المستوى غير الإسلامي :

من المعروف أن الحضارة العربية الإسلامية هي التي حفظت الإنجازات الثقافية للحضارات المنقرضة: الفرعونية، والسومرية، والأشورية، والبابلية، والعربية في اليمن. واليونانية، والهندية والرومانية، والفارسية. وقد بينت في المستوى الإسلامي أن الحفاظ على مباني عبادة الديانة المسيحية وعلى حرية ممارسة المسيحيين لدينهم تم طبقاً للآية الكريمة: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ... ﴾ (٢٥٦) ﴿^(١)، وبقرار سياسي من كل من الخليفة أبو بكر والخليفة عمر. فحفظاً للمسيحية تراثها المادي واللامادي المتمثل بعقيدتها الدينية وبمنظومة قيمها.

وأكثر من ذلك فإن الفضول العلمي دفع المؤرخين المسلمين ليكتبوا ١٣

مؤلفاً^(١) عن الأديرة النصرانية في العراق وبلاد الشام وفلسطين والجزيرة ومصر . وأذكر منها كتاب أبو الفرج الأصبهاني الديارات ، وكتاب الشابشتي المتوفى (٣٨٨هـ - ٩٨٨م) الديارات، وكتاب الشمشاطي المتوفى (٣٩٤هـ - ١٠٠٣م) الأديرة والإعمار في البلدان والأقطار. كما تحفل كتب التاريخ والخطط والجغرافيا بفصول وأبواب عن الديارات والكنائس، أخص منها: كتاب ياقوت الحموي المتوفى (٦٣٦هـ - ١٢٢٩م) معجم البلدان والذي سجل في الجزء الثاني منه ١٩٠ ديراً. وكتاب المقریزی المتوفى (٨٤٥هـ - ١٤٤١م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، الذي سجل فيه كنائس القاهرة وبعض ديار مصر. وكتاب مجير الدين العليمي الحنبلي (٩٠٠هـ - ١٤٩٤م)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، الذي سجل فيه ٢٠ كنيسة داخل مدينة القدس وفي محيطها.

ولقد وصف المؤلفون الديارات ومواقعها من الخارج، أما وصفها من الداخل فكان نادراً لتعذر دخولها، كما وثقوا الشعر الذي قيل في معظم هذه الأديرة، وبعض الأحداث الاجتماعية والأعياد، وبينوا كيفية تواصل المسلمين مع محيطها البيئي، وكيف تعاملوا مع محيطها كمتنزهات، وجعلوها جزءاً من العمران الحضري والنسيج المعماري للمدن بعد أن كانت أماكن منعزلة عن محيطها الحضري. وبهذا يتضح كيف حافظت الحضارة الإسلامية على التراث المسيحي المادي واللامادي. واللافت للنظر أن ياقوت الحموي أكد أن الفضول العلمي، والتوثيق هما السبب الرئيس لتأليفه لمعجمه، حيث ذكر في مقدمة معجمه^(٢):

١ - ورد هذا العدد في مقدمة كتاب الديارات التي كتبها محقق الكتاب.

- انظر: الأصبهاني، أبو الفرج، (٢٨٤-٣٥٦هـ / ٨٩٧ - ٩٦٧م)، الديارات، تحقيق جليل عطية، دار رياض الريس، لندن، ص: ٢٧-٣١.

٢ - انظر: الحموي، ياقوت (٦٢٥هـ - ١٢٢٧م)، معجم البلدان، ٥ أجزاء، دار صادر (١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م)، بيروت، ج ١ / ٧ - ١٥.

"... فهذا كتاب في أسماء البلدان... والقرى والحوال... وقال وهو أصدق القائلين: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ (١)، أى انظروا إلى ديارهم كيف درست وإلى آثارهم وأنوارهم كيف انطمست... لأن من هذه الأماكن ما هي مواقيت للحجاج والزائرين ومعالم الصحابة والتابعين... ومشاهد للأولياء والصالحين... فألقى حينئذ في روعى افتقار العالم إلى كتاب في هذا الشأن مضبوطاً... ورتبته على حروف المعجم... حتى لقد ذكرت أشياء كثيرة تأبأها العقول، وتنفر عنها طباع من له محصول، لبعدها عن العادات المألوفة، وتنافرها عن المشاهدات المعروفة... لأننى كتبتها حرصاً على إحراز الفوائد وطلباً لتحصيل القلائد منها والفرائد..."

وهذا يوضح بما لا يدع مجالاً للشك أن الفضول العلمى للحفاظ على الإنجازات العربية الإسلامية وتراث الآخرين كان هدفاً ومطلباً للحضارة العربية الإسلامية، حتى لو كان خرافة أو أسطورة، وبصرف النظر عن الدين والمعتقد.

وياقوت بنى بفضوله العلمى مطلباً دينياً، وسار على نهج مأسس، نهجه الخلفاء من قبله فى جمع القرآن الكريم، والحديث الشريف، والشعر الجاهلى، فى جمع وترجمة التراث الشعبى للحضارات المنقرضة، كما فعل من قبله عبد الله بن المقفع (٨٠-١٤٣هـ / ٦٩٩ - ٧٦٠م) فى ترجمته لكتاب كليله ودمنة من الفارسية، على الرغم من اختلاف (٢) الروايات فى هذا الكتاب، فمنهم من ينسبه إلى أصول هندية ترجمت إلى الفارسية وترجمها ابن المقفع للعربية، ومنهم من يقول أنه من وضع ابن المقفع نفسه ونسبه لأصول فارسية.

وكذلك الأمر فى جمع التراث العلمى فالخليفة العباسى هارون الرشيد

١ - سورة المائدة.

٢ - انظر: ابن المقفع، عبد الله، (٨٠-١٤٣هـ / ٦٩٩ - ٧٦٠م)، كليله ودمنة، تحقيق مفيد قميحه، دار الشواف للطباعة والنشر، الرياض، ص: ٢١.

(١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٩ م) أنشأ بيت الحكمة، الذي طوره ابنه الخليفة المأمون (١٩٨-٢١٨هـ/٨١٣-٨٣٣ م) ليصبح صرحاً علمياً مميّزاً، وظف فيه علماء عصره، وجمع كل ما وصلت إليه يده من إنتاج الحضارات السابقة. وبصفة خاصة اليونانية، والسنسكريتية، والهندية. وحفظ هذا الإنتاج مترجماً، ومدقّقاً، ومنقحاً، باللغة العربية، وبلغته الأصلية، حيث قام المسيحيون بدور مهم في عملية الترجمة من اليونانية والسريانية إلى العربية. وأكثر من ذلك فإن الخليفة المأمون قد منح تفرغاً^(١) علمياً للعالم اللغوي الكوفي الفراء في بيت الحكمة، "ليجمع أصول النحو وما سمع من العرب (أي الشعر) ووكل به من يكفيه حاجته حتى لا يتعلق قلبه ولا تشوق نفسه إلى شيء وحتى أنهم كانوا يؤذونه (يقيموا الآذان له) في حجرته بأوقات الصلوات (تأمل وترحم على ملوك العلماء) (التعليق بين القوسين) من وضع الرافعي) وصير له الوراقين، وألزمه الأمانة والمنفقين، فكان الوراقون يكتبون وهو يُملى حتى صنف الحدود (كتاب في النحو)".

يتضح من بيت الحكمة دور القرار السياسي والفضول العلمي، في جمع وحفظ التراث الإنساني وتدوين الإنجازات العلمية والثقافية للحضارة العربية الإسلامية. كما يتضح أن بيت الحكمة كان أول وأكبر مصدر للتنمية العلمية والثقافية في العالم.

ولقد قام ابن النديم (٣٧٧هـ - ٩٨٧م) صاحب كتاب الفهرست، بتسجيل جميع الكتب التي ترجمت من هذه الحضارات، ووثق أسماء مؤلفيها، ولخص مواضيعها. كما حوى سجلاً للتراث اللامادي شمل جميع الكتب المؤلفة في التراث الشعبي: كالأسمار والخرافات والعزائم والسحر والشعوذة، وأخبار المسامرين والخرفين والمصورين، وكتب الطبخ، وكتب تعبیر الرؤيا أو تفسير الأحلام، وكتب النوادر، وكتب عشاق الإنس للجن وعشاق الجن للإنس، وكتب عجائب البحر، وكتب أسماء العشاق، وكتب تركيب العطور. والواقع أن كتاب ابن النديم يعتبر سجلاً للمنجزات

١ - انظر: الرافعي، مرجع سابق، ج ١ / ٤١١ .

الإسلامية المادية واللامادية أو الإنسانية، وللتراث المادى واللامادى أو الإنسانى للحضارات: اليونانية، والفارسية، والسنسكريتية، والهندية، والصينية. والحقيقة أن الدور الذى قام به ابن النديم أشبه ما يكون بدور المكتبات الوطنية ودور حفظ الوثائق فى عصرنا الحاضر. ولقد نَهَجَ نَهْجُ ابن النديم الكثير من الموثقين العرب والمسلمين. وعليه فإن عملية التوثيق والحفظ هى من إبداعات الحضارة الإسلامية.

كما قام الكثير من علماء المسلمين بدراسة هذه الحضارات وتوثيقها، أخص منهم الجغرافى والمؤرخ العربى الهمدانى المتوفى (٣٥٠هـ - ٩٦٢م) صاحب كتاب الإكليل، الذى قام بدراسة الحضارات العربية فى اليمن، ووثق إنجازاتها المادية (المعمارية) واللامادية فى الجزء الثامن من كتابه.

كما قام البيرونى (٣٦٢-٤٤٠هـ / ٩٧٣ - ١٠٤٨م) بدراسة كل ما أنتجته الحضارة الهندية على مدى ٤٠ سنة، عاشها بين ظهرائهم، فدرس ووثق علومهم، وفنونهم، وفلسفتهم، ولغاتهم، ودياناتهم، وسلوكهم، وعاداتهم، وقيمهم، وعمرانهم فى كتابيه: الآثار الباقية من القرون الخالية، وكتاب تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مردولة. وربما تكون دراسات البيرونى، إلى جانب دورها الريادى فى التراث الإنسانى، هى أول الدراسات فى علم الإنسان (الأنثروبولوجى).

كما درس الغرناطى (٤٧٣-٥٦٥هـ / ١٠٨٠ - ١١٧٠م) صاحب كتاب تحفة الألباب ونخبة الاعجاب، التراث المادى للحضارة الفرعونية. وكذلك الإدريسى المتوفى (٥٦٠هـ - ١١٦٥م) ألف كتاباً عن الهرم، ودرسه دراسة عميقة. والبغدادى (٥٧٥-٦٢٩هـ / ١١٦٢ - ١٢٣١م) صاحب كتاب الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر، درس وسجل التراث المادى للحضارة الفرعونية.

والمقرئى (٧٦٦-٨٤٥م / ١٣٦٤ - ١٤٤١م) صاحب كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقرئية، من أكثر الكتب التى عنت بالحفاظ

على التراث الإنساني للحضارة الفرعونية، والإنجازات الإنسانية للحضارة العربية الإسلامية. والكتاب في غاية الدقة والموضوعية، وفضوله العلمي وأهدافه ومنهجيته في التوثيق في منتهى الوضوح، ووضعت بوعى وقصد، كما ذكر في مقدمة كتابه^(١):

"وكانت مصر هي مسقط رأسي... وآتاني ربي الفطنة والفهم أرغب في معرفة أخبارها... فقيدت بخطي في الأعوام الكثيرة وجمعت من ذلك فوائد قل ما يجمعها كتاب... إلا أنها ليست مرتبة على مثال... فأردت أن أخص فيها ما بديار مصر من الآثار الباقية عن الأمم الماضية والقرون الخالية وما بقى بفسطاط مصر من المعاهد غير ما كاد يفنيه البلى والقدم ولم يبق إلا أن يمحو رسمها الفناء والعدم، وأذكر ما بمدينة القاهرة من آثار القصور الزاهرة، وما اشتملت عليه من الخطط والأصقاع وحوته من المباني البديعة الأوضاع، مع التعريف بحال من أسس ذلك من أعيان الأمثال والتنويه بذكر الذي شاهدها من سراة الأعظم والأفاضل...".

والواقع أن الحضارة الفرعونية حُصِيَتْ بالكثير من الاهتمام من قبل العلماء المسلمين، لا تتسع هذه الدراسة لحصر المؤلفات التي عنيت بدراسة وتوثيق تراثها الإنساني (المادى واللامادى).

كما حُظِيَ التراث الإنساني الفارسي باهتمام الحضارة الإسلامية، فوثق الشاعر البحتري (٢٨٦هـ - ٨٩٩م) إيوان كسرى بمدينة المدائن (سلمان باك حالياً)، في قصيدته السينية، فكانت سجلاً معمارياً وفنياً بكل المعايير، وسأعرض لمقتطفات منها^(٢):

- ١ - انظر: المقرئى، أحمد (٧٦٦-٨٤٥هـ - ١٣٦٤-١٤٤١م)، المراعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقرئية، جزءان، دار صادر، بدون تاريخ نشر، بيروت، ج ١ / ٢ - ٥.
- ٢ - انظر: البحتري، الوليد (٢٨٦-٨٩٩م)، ديوان البحتري، جزءان، شرح وتعليق د. محمد التونجى، دار الكتاب العربى (١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م) بيروت، ج ٢ / ٢٣١ - ٦٣٦.

حضرت رحلى الهموم فوجه
 ست إلى أبيض المدائن عنسى
 أتسلى عن الحظوظ وآسى
 نخل من آل ساسان درس
 وهو ينبىك عن عجائب قوم
 لا يشاب البيان فيهم بلبس
 تصف العين أنهم جد أحيا
 لهم بينهم إشارة خرس
 يغتلى فيهم ارتياحى حتى
 تتقراهم يداى بللمس
 وكان الأيوان من عجب الصنعة
 جوب فى جنب أرعن جلس
 مشمخر تعلو له شرفات رفعت
 فى رؤوس رضوى وقس
 فهو يبدى تجلداً وعليه
 كل كل من كلال الدهر مرسى
 ليس يدري أصنع إنس جن
 سكونه أم صنع جن لإنس
 غير أنى أراه يشهد أن لم
 يك بانيسه فى الملوك بنكس
 ذاك عندى وليست الدار دارى
 باقتراب منها ولا الجنس جنسى

وأنتهى بكتاب عجائب الهند (القرن ٣هـ - ١٠م) لبرزك بن شهریار الناخداہ الرامهرمزى الذى حوى الكثير من التراث الشعبى الهندى، والكتاب من منشورات بريل بليدن فى هولندا سنة ١٨٨٦م.

وبالجملة فإنه لا يكاد يخلو مصدر من المصادر التاريخية والجغرافية من ذكر وتوثيق للمنجزات الثقافية لهذه الحضارات وبصفة خاصة الإنجازات المعمارية.

وختاماً فقد بينت أن الجهد العلمى المميز الذى بذلته الحضارة العربية الإسلامية فى الحفاظ على إنجازاتها المادية واللامادية والتراث الإنسانى غير الإسلامى، لم يكن ترفاً معرفياً، بل واجب دينى ومتطلب حضارى وفضولاً علمياً، فرضته الشريعة الإسلامية على إنتاجها العلمى والثقافى وعلى إنتاج غيرها من الحضارات السابقة والمعاصرة لها. فالحفاظ على التراث الإنسانى ولد فى رحم الشريعة الإسلامية وارتبط بفلسفة تاريخها، وقد تم طبقاً لمنهجيات فى الجمع وتقانات فى التحقيق والتوثيق والتدوين والتصنيف. عرضت لمصادرها، وبينت بعض منها وأحلت القارئ إلى بعض مظانها. وبينت أن الحضارة العربية الإسلامية هى أقدم وأكبر وأغنى مصدر للتراث الإنسانى، والأعمق معرفياً فى العالم. وهذا يرتب على أبنائها الإمام بإنجازاتها وتسويق إبداعاتها فى مجال الحفاظ الإنسانى. كما يرتب على منظمة اليونسكو أن تستمر وتوظف جهد الحضارة الإسلامية فى هذا المجال.

خاتمة

خصصت هذه الدراسة للمنجزات والتراث الإنساني في الحضارة العربية الإسلامية، فعرضت لتصنيف منظمة اليونسكو للمنتجات الثقافية العالمية إلى: آثار وتراث. ثم عرضت لتصنيفها التراث إلى: مادي، ولا مادي، وإنساني. وبينت أن الأخير يجمع بين الأول والثاني، كما بينت أن ميثاق منظمة اليونسكو نص على أن التراث الإنساني ملك للبشرية جمعاء، وأن واجب الحفاظ عليه لا يقع على كاهل الثقافة التي أنتجته فحسب، بل أُمى (أى دولى مثل بالمنظمة) فى نفس الوقت. ثم صنفت التراث زمنياً إلى: قديم وحديث.

ثم عرفت الدراسة التراث الإنساني، وبينت أن تصنيف اليونسكو أغفل خصوصية الحضارة الإسلامية، لأنها حضارة قائمة منتشرة فى المكان ومستمرة فى الزمان، ولأن إنجازاتها الثقافية المادية واللامادية مرتبطة بفلسفة تاريخها، فاعلة، وتؤدى وظائفها، موثقة ومدونة، ولأن الحفاظ عليها واجب شرعى كما هو الحال فى مؤسسة الوقف التى تنص على أن استعمال الإنجازات الثقافية يجب أن يكون أبدياً إلى أن يرث الله الأرض وما عليها. ثم بينت الدراسة أن ما جرى عليه التقادم من إنجازاتها بفعل التطور موثق ومدون ومحفوظ متحفاً، فهو منجز ثقافى لهذه الأسباب، ويمكن تسمية هذا الجزء، تجاوزاً، بالتراث.

وأوصت الدراسة أن على الدول العربية والإسلامية التحفظ على تصنيف الإنجازات الإسلامية إل آثار وتراث كالتالى: لما كانت الحضارة العربية الإسلامية حضارة قائمة، منتشرة فى المكان ومستمرة فى الزمان، فإن جميع إنجازاتها المادية (المعمارية) هى مبانٍ صالحة للاستعمال أو إعادة التأهيل، وأن ما جاء فى ميثاق اليونسكو والمواثيق الدولية والهيئات الغربية من تصنيف زمنى للإنجازات المادية: كآثار وتراث، تصنيف لا يعنى الحضارة العربية الإسلامية، ولا يرتب عليها أى التزام أدبى أو معنوى أو قانونى.

ثم عرضت الدراسة لدور الحضارة الإسلامية الريادى فى توثيق وتسجيل وحفظ الإنجازات والتراث الإنسانى ضمن مستويين : إسلامى وغير إسلامى . وبينت أن المستوى الأول خاص بإنجازاتها الثقافية، كتدوين القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر الجاهلى، وجمع منتجها الثقافى الفنى كالأغاني، والموروث الشعبى كالسير والعجائب والغرائب والمسامرة واللهو . وبينت الدراسة أن الحضارة الإسلامية هى أكبر مصدر للتراث الإنسانى وذلك لانتشارها الجغرافى وتنوعها الثقافى بسبب كثرة الشعوب التى اعتنقت الإسلام . كما بينت الدراسة الدور المؤسسى الذى تبنته الحضارة الإسلامية فى توثيق وحفظ التراث الإنسانى للديانة المسيحية ولغيرها ممثلاً بوصية أبو بكر وبالعهد العمرى التى تشكل أول ميثاق عالمى للحفاظ على الموروث الإنسانى .

ثم عرضت الدراسة للمستوى غير الإسلامى وبينت مرة أخرى الدور الريادى للحضارة الإسلامية فى جمع وحفظ وترجمة المنتج العلمى والثقافى للحضارات المنقرضة بصورة مؤسسية واستشهدت ببيت الحكمة الذى أسسه هارون الرشيد بمدينة بغداد، والذى فعله ابنه المأمون الذى جمع التراث اليونانى والسنسكرىتى والهندي ووظف المترجمين لترجمته للعربية، فحفظت كل هذه الإنجازات للإنسانية . كما بينت الدراسة دور بيت الحكمة فى التنمية العلمية والثقافية .

ثم بينت الدراسة دور الفضول العلمى عند العلماء المسلمين فى حفظ تراث الحضارات المنقرضة كالفرعونىة (المصرية القديمة) الثقافية والعلمية، وعرضت لبعض الدراسات التى عنيت بها . كما عرضت لدور البيرونى فى توثيق وحفظ تراث الحضارة الهندية . كما عرضت الدراسة أيضاً لسينية البحترى فى توثيق إيوان كسرى بمدينة المدائن، ولترجمة ابن المقفع لكتاب كليله ودمنة من الفارسية للعربية .

ونوهت الدراسة بالجهد العلمى المميز للحضارة الإسلامية فى الحفاظ على

الإنجازات المادية واللامادية الإسلامية وغير الإسلامية، وبينت أنه لم يكن فضولاً معرفياً من العلماء المسلمين فحسب، بل متطلب حضارى وواجب دينى، فرضته الشريعة الإسلامية على إنتاجها الثقافى وعلى إنتاج غيرها من الحضارات السابقة والمعاصرة لها. وأوصت الدراسة بأن على اليونسكو أن تستمر بل أن تتبنى التجربة الإسلامية فى الحفاظ على إنجازاتها الثقافية وتراث الآخرين؛ لأنها أكبر وأقدم وأغنى مصدر للتراث الإنسانى.